بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 30 يناير 2017

التفكيكية في النقد المغربي المعاصر:
محمد مفتاح، حميد لحمداني

علي صدّيقي
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخص:

يعالج هذا البحث موضوع استقبال التفكيكية déconstruction، للفيلسوف الفرنسي (جاك دريدا Jacques Derrida) في الفكر النقدي المغربي المعاصر، ويحاول أن يجيب عن السؤال المركزي الآتي: كيف استقبل النقاد المغاربة التفكيكية؟ وذلك من خلال الوقوف على جهود ناقدين مغربيين بارزين، هما؛ محمد مفتاح، وحميد لحمداني.

فقد كان مفتاح من النقاد المغاربة الأوائل الذين كتبوا عن التفكيكية، وبينوا منطلقاتها الفلسفية، وأشاروا إلى خلفيتها القبّالية اليهودية، وصرّحوا بتوظيفها في بعض أعمالهم.

أما لحمداني، فقد تحدّث عنها في كتابه «الفكر النقدي الأدبي المعاصر»؛ حيث خصص لها الفصل الأخير، الموسوم بـــ (التفكيكية منهج نقدي، أم آلية للهدم)، وحاول بدوره الكشف عن خلفياتها ومصادرها، قبل أن ينتقل إلى إبراز خصائصها، المتمثلة أساسًا، في الغموض الناتج عمّا سماه «الطابع الشعري» لكتابات دريدا، وإلى التعريف بأهم مصطلحاتها، وتوضيح أهدافها، وعلاقتها بالقيم، ورصد واقعها في العالم العربي.

ويخلص البحث إلى أنّ تباين مواقف الناقديْن إزاء المناهج النقدية الغربية عامة، وإزاء التفكيكية خاصة، تباين ظاهري، لا يحول دون التقائهما؛ وذلك لإيمانهما بـ«كونية» هذه المناهج، وبإمكانية «تحييدها»، وفصلها عن أطرها الفلسفية، وخلفياتها اللاهوتية.

تمهيد:

التفكيكية: «استراتيجية فلسفية نقدية» ما بعد بنيوية، ظهرت بأوروبا خلال منتصف الستينيات من القرن الماضي، وذلك على يد «مؤسسها» الفيلسوف الفرنسي اليهودي جاك دريدا Jacques Derrida (1930م- 2004م).

ورغم أن هذه «الاستراتيجية» قد عرفت طريقها إلى النقد المغربي في مرحلة مبكرة نسبيًا، وأن اهتمام النقاد المغاربة بها، ترجمة وتأليفًا، في تزايد مستمر، خاصة في العقدين الأخيرين؛ فإنه يمكن القول: إنها لم تحظ لدى النقاد المغاربة، بكثير من الاهتمام، وذلك بخلاف ما حظيت به مناهج نقدية أوروبية أخرى، فرنسية بالخصوص، مثل: البنيوية التكوينية، من اهتمام بالغ، ومن تبنٍّ صريح لمفاهيمها ومقولاتها النقدية. فما هو السبب وراء عدم احتفاء أغلب النقاد المغاربة بالتفكيكية، احتفاءهم بباقي المناهج النقدية؟ أهو ما تتسم به من غموض ومراوغة وسيولة؟ أم هو عدم انتشارها في فرنسا، بلدها الأصلي، الذي عوّدنا المغاربة على الانفتاح على ثقافته، والإفادة من معطياته المنهجية والفلسفية عامة، وانتشارَها في الولايات المتحدة الأمريكية؟ أم هو مراوحة التفكيكية بين الفلسفة والأدب، وما أثارته العلاقة بين هذين المجالَين عند دريدا من جدل لدى الباحثين؟ أم هو، أخيرًا، تلك الخلفية اللاهوتية والفلسفية التي تستند إليها، والتي كشف عنها، إلى جانب بعض النقاد الغربيين، بعض النقاد المغاربة والمشارقة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال العريض، وعن غيره من الأسئلة التي يطرحها التلقي المغربي للتفكيكية، تحتاج منا إلى القيام بعملية استقراءٍ لما كتبه الباحثون المغاربة حول التفكيكية، ودراسته وتحليله ونقده. غير أننا، ونظرًا لضيق المجال الذي سنخصصه لهذا البحث، فإننا سنقتصر، هنا، على محاولة الإجابة عن سؤال، نخاله لا يقل أهمية عن السؤال السابق، ويتعلق بكيفية تلقي النقاد المغاربة التفكيكية، وذلك من خلال الوقوف على جهود ناقدَين مغربيَين بارزَين؛ الأول: هو محمد مفتاح؛ وذلك لقيمة أعماله العلمية، وريادة تلقيه التفكيكية، والتي تميز بمحاولته الكشف عن خلفياتها الفلسفية واللاهوتية. والثاني: هو حميد لحمداني، وذلك لاعتبارين؛ يتمثل الأول: في قيمة كتابات الرجل العلمية في الساحة النقدية في المغرب؛ حيث يعد أحد أبرز النقاد المغاربة اهتمامًا بالمناهج النقدية الغربية بمختلف توجهاتها. ويتمثل الثاني: بالوفاء بوعد كنت قد

قطعته على نفسي، حين التقيت بلحمداني في الناظور قبل حوالي عامين؛ حيث كنت قد وعدته بالتعليق على ما كتبه عن التفكيكية في كتابه **الفكر النقدي الأدبي المعاصر**.

أولًا: محمد مفتاح والخلفية القبّالية[1] للتفكيكية

يعد محمد مفتاح من النقاد المغاربة الأوائل الذين كتبوا عن التفكيكية، وأشاروا إلى خلفيتها القبّالية اليهودية، وصرّحوا بتوظيفها في بعض أعمالهم.

فقد تحدث مفتاح عما أسماه «التيار التفكيكي» في كتابه «مجهول البيان» الصادر عام 1990م، وذلك في سياق حديثه عن التأويل عند المحدَثين؛ حيث رأى أن هذا التيار: «يعتمد على أسس فلسفية رافضة للثنائيات القديمة، وعلى مفاهيم سوفسطائية، وتراث قبّالي، وفلسفة عدمية»[2]. وحصر منطلقه الأساس في كون النص، من منظور هذا التيار، لا يقبل تعدد التأويلات واختلافها فحسب، وإنما يقبل التأويلات المتناقضة التي يلغي بعضها بعضًا[3].

وقد ترتبت على هذا المنطلق، حسب مفتاح، عدة «تعاليم»، أجملها فيما يأتي:

* يجب أن يُهدم النص حتى يتهاوى نسيجه التعبيري.

* إن النص لا يتحدث عن خارجه (مرجعه)؛ بل لا يتحدث عن نفسه، وإنما تجربتنا في القراءة هي التي تحدثنا عنه.

* إن النص يمكن أن يقرأ بتجاوز معناه التواضعي الاصطلاحي، وهذه القراءة هي نوع من اللعب الحر[4].

1- القبّالة (kabala)، أو القبالاه (Kabbalah): نزعة صوفية حلولية يهودية، توحد بين الخالق والمخلوق، حتى تختفي المسافة بينهما، ويلتحمان ويكونان جوهرًا واحدًا، ولا يكون للواحد أي وجود دون الآخر. وقد مارس رجال الدين اليهود هذه النزعة؛ للكشف عن المعاني الخفية والرمزية في الكتاب المقدس. والقبالة: كلمة ذات أصل عبري، تفيد معنى التواتر والقبول والتلقي؛ أي تلقي المرء حكمة السلف. وقد ظهرت في فرنسا أوائل القرن الثاني عشر (حوالي سنة 1200م)، وتنقسم إلى تيارين أساسيين، هما: قبالاه الزوهار، نسبة إلى كتاب «الزوهار» الذي يرجح أن مؤلفه هو موسى دي ليون (ت 1305م). والقبالاه اللوريانية، نسبة إلى إسحاق لوريا (1572-1534م). ولمزيد من التفاصيل حول هذه النزعة يراجع ما يلي:

- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج 5، ص ص 163- 189

- عبد المنعم الحفني: موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ص ص 169-176

2- محمد مفتاح: مجهول البيان، ص 101

3- المرجع نفسه، ص 101

4- المرجع نفسه، ص 101

وخلص مفتاح إلى أن خلفيات التفكيكيين، وفي مقدمتهم دريدا، وبارت في أعماله الأخيرة، «تستقي من تيارات فلسفية تهدف إلى تحطيم البنيات العتيقة بمختلف أشكالها وأنواعها، وإلى تفضيل الشكل، وإلى الأخذ بنسبية مطلقة قد تصل إلى العدمية»[5].

غير أن ما يلاحظ على هذا العرض الذي قدمه مفتاح لـ«التيار التفكيكي»، هو أنه عرض مقتضب، ولا يعطي القارئ فكرة واضحة عنه.

وإذا كان مفتاح قد نبه، في بداية حديثه عن «التأويل الحديث»، إلى أنه سيكتفي بتقديم «خلاصة تركيبية لآراء المؤولين المحدثين»، وتصنيفها إلى «تيارات أساسية»، مع تجنب التفاصيل والإحالة إلى المراجع[6]؛ فإن ما يسجل عليه، هو أنه اعتمد في عرض آراء «التفكيكيين»، اعتمادًا كليًا، على دراسة واحدة لا يتجاوز عدد صفحاتها خمس عشرة صفحة، فاكتفى بتلخيص هذه الدراسة، ولم يحل إلى أي مرجع آخر من مراجع التفكيكية، كما وعد بذلك، ولا إلى أي كتاب من كتب التفكيكيين أنفسهم، وفي مقدمتها كتب دريدا، زعيم التفكيكيين، كما تقضي بذلك الأعراف العلمية.

أما الإشارة الثانية المهمة، والتي وردت لدى مفتاح عن التفكيكية، فنجدها في كتابه «النص: من القراءة إلى التنظير»[7]، وذلك في سياق حديثه عن «نظرية التناص»؛ حيث رأى أن هذه النظرية تفرعت عنها «نزعتان متضادتان، ولكنهما متكاملتان؛ إحداهما أدبية: وتتجلى في آثار (باختين)، ومن تأثر به كـ (كريستيفا)، و(بارث) في بداية أمره. وثانيتهما: فلسفية، وتتجلى في التفكيكية التي يمثلها (دريدا)، و(بارت) في آخر أيامه، و(بول دومن)، و(هارتمن) وغير هؤلاء»[8]. وإذا كانت نظرية التناص، لدى ممثلي النزعة الأولى، قد «نمت وترعرعت في خضم نزعة احتجاجية واعتراضية ساخرة من المتوارث في السياسة والثقافة»[9]، فإن سند هذه النظرية، لدى ممثلي النزعة الثانية، هو: «الثقافة القبالية اليهودية، والفلسفات السوفسطائية والعدمية، وبعض الممارسات الشعبوية»[10]، كما ذهب مفتاح إلى أنه بسبب هذا شاعت مقولة «موت المؤلف»، وذاعت «الدعوة إلى نسف كل مؤسسة، ومنها المؤسسات الأدبية»[11]. وخلص إلى أن

5- نفسه، ص ص 101- 102

6- نفسه، ص 100

7- صدر عام 2000م.

8- محمد مفتاح، النص من القراءة إلى التنظير، ص 24

9- المرجع نفسه، ص 24

10- نفسه، ص 25

11- نفسه، ص 25. غير أن الناقد يتجاهل، هنا؛ أن هذه المقولة قد شاعت قبل ظهور التفكيكية، وأن دور التفكيكية قد اقتصر على تعزيزها، وترسيخها لا على إشاعتها. إن التفكيكية، كما هو معلوم، لم تكن هي التي دعت ابتداءً إلى موت المؤلف، وإنما ظهرت مع البنيويين قبل ظهور دريدا. انظر بخصوص هذا:
- علي صديقي: "مدخل لدراسة التفكيك عند جاك دريدا"، ص ص 36- 50

التفكيكية: «نزعة تقوم على منطق المفارقة أو منطق الإحراج؛ فهي ترفض تراث المركزية الأوروبية، ولكنها تقبل الفكر القبالي اليهودي بخلفياته الميثولوجية، وهي ترفض الإبداع، وفي نفس الوقت تدعو إليه، وهي تنظر إلى النص باعتباره شتاتًا، وترفض المؤسسة، ومنها مؤسسة الجنس الأدبي، ولكنها تنظر له وتؤسسه»[12].

غير أن مفتاح، رغم وعيه بهذه الخلفيات، وكشفه عنها؛ فإنه يصرح بأنه قد وظف بعض أطروحات التفكيكية «الإيجابية» في بعض أعماله؛ حيث يقول: «إن هذا الاتجاه (التفكيكي) واسع الانتشار في كل أصقاع الدنيا، فقد تبنيت أطروحاته الفلسفية، وطبقت تحليلاته اللغوية، ولكنه يخضع الآن لتحليلات دقيقة كشفت خلفياته، واستراتيجيته، وأبعادها؛ بل وخطورتها على الفكر «العقلاني الناشئ». ومع ذلك، فقد وظفنا بعض أطروحاته الإيجابية، مع الاحتياط، في بعض أعمالنا السابقة، وفي هذا العمل»[13]. والعمل السابق المشار إليه، هنا، هو: كتابه «تحليل الخطاب الشعري»، كما أشار إلى ذلك مفتاح نفسه في الهامش[14].

وإذا كان مفتاح قد بين في إحدى حواراته، طبيعة هذه الأطروحات الإيجابية التي وظفها في كتابه الأول، وهي «تفكيك أسماء الأعلام»، فإنه في الكتاب الثاني لم يفعل ذلك.

ويقودنا صنيع مفتاح إلى طرح جملة من الأسئلة التي يصعب أن نجد لها جوابًا في كتاباته النقدية، من قبيل: كيف يمكن تخليص هذه الأطروحات الإيجابية، على فرض وجودها في التفكيكية، من هذه الخلفيات التي أشار إليها؟ وكيف يجيز لنفسه التركيب بين تيارات تنتمي إلى الحداثة، وأخرى إلى ما بعد الحداثة، مع ما بينها من فروق؟[15].

إن جمع مفتاح بين القول بتحيز المناهج النقدية الغربية، والتسليم في الوقت نفسه، بكونيتها وتعاليها على خصوصياتها، وسعيه إلى «التركيب» بين الآراء المتباينة المتعارضة من سمات خطابه النقدي[16].

12- محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، ص 25

13- محمد مفتاح، مجهول البيان، ص 102

14- وقد علق مفتاح على هذه الإشارة، قائلًا: «وقد فاتت هذه الخلفية بعض القراء المحترمين»، مجهول البيان، ص 102. ويؤكد مفتاح، في سياق كشفه عن المناهج التي وظفها في كتابه: «تحليل الخطاب الشعري»، توظيفه بعض مفاهيم التفكيكية قائلًا: «كما أن هناك استثمارًا لبعض المفاهيم التفكيكية، وإن لم أكن قد أشرت إلى ذلك في المقدمة، وعدم الإشارة أدّى إلى سوء تفاهم بين ما يقصد إليه الكتاب، وبعض القراء، فاستثمار بعض المبادئ التفكيكية، يتجلى في تفكيك أسماء الأعلام». انظر:
- محمد مفتاح، في سبيل فهم جديد للنقد، (حوار)، ص 163

15- يجد القارئ تحليلًا مفصّلًا، ومناقشة مستفيضة، لمسألة التركيب في النقد العربي المعاصر عامة، وفي أعمال مفتاح خاصة، في:

- علي صديقي، التحيز إلى النقد الغربي في النقد العربي الحديث، المنشور بعنوان: التحيز العربي للنقد الغربي، ص ص 90- 140

16- لمزيد من التفصيل، ينظر، إلى جانب البحث السابق:
- دراسة علي صديقي، ومحمد مفتاح، بين إدراك تحيز النقد الغربي والتسليم بكونيته، في: مشروع محمد مفتاح، دراسات في المنهج والمصطلح والمرجع، ص ص 47- 74

ثانيًا- حميد لحمداني: من التعريف بالتفكيكية إلى رصد واقعها في العالم العربي

تناول حميد لحمداني «التفكيكية» في كتابه «الفكر النقدي الأدبي المعاصر»[17]؛ حيث خصص لها الفصل الأخير الموسوم بـ«التفكيكية منهج نقدي أم آلية للهدم»، وقد استهل حديثه عنها، بإبراز خلفياتها ومصادرها التي حصرها في صنفين؛ أولهما: الخلفيات والمصادر الفلسفية، المتمثلة أساسًا في (فينومينولوجيا إدموند هوسرل)، وفي الفلسفات التي شيدها عدد من الفلاسفة الغربيين، وفي مقدمتهم؛ مارتن هايدجر، وميشال فوكو، وجيل دولوز. وثانيهما: الاتجاهات الأدبية والمناهج النقدية التي ازدهرت خلال القرن العشرين، نتيجة التطور الهائل الذي حدث في اللسانيات، ومنها؛ البنيوية، والتحليل النفسي، ونظريات التأويل، والقراءة. وانتقل بعد ذلك إلى إبراز خصائصها، المتمثلة أساسًا في الغموض الناتج عما أسماه «الطابع الشعري» لكتابات دريدا[18]، ثم عرف بعد ذلك بأهم مصطلحات التفكيكية، وأبرز أهدافها، وعلاقتها بالقيم. وختم دراسته برصد واقع التفكيكية في العالم العربي.

1. في ترجمة مصطلحات التفكيكية[19]، والتعريف بها:

أولى لحمداني مصطلحات التفكيكية، ترجمةً وتعريفًا، عناية خاصة، وهذا ما يتجلى من خلال اقتراحه مقابلات عربية لها، ومحاولته تقديم تعريف لها، وذلك رغم ضيق الحيز الذي خصصه لهذه المصطلحات، ورغم اقتصاره على بعضها، وإغفاله جملة منها.

1.1. «التفكيك déconstruction»[20]:

يعد «التفكيك»: المصطلح العربي الذي اختاره لحمداني ليقابل به المصطلح الفرنسي déconstruction، أما التفكيكية؛ فتقابل عنده deconstructivisme. وهو لا يذكر سبب اختياره مصطلح التفكيك، الذي شاع استخدامه في النقد العربي المعاصر لدى عدد من النقاد، لكنه، بالمقابل، يرفض الترجمة التي اقترحها بعض النقاد لهذا المصطلح، وهي «التقويض»؛ حيث يرى أن هذه الترجمة غير دقيقة، وأن هناك اختلافًا كبيرًا بين كل من التفكيك والتقويض، لكن دون أن يحدد طبيعة هذا الاختلاف. يقول: «يبدو أن هذه الترجمة غير

17- العنوان الكامل للكتاب، هو: الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، وقد صدر في طبعته الأولى عام 2009م، وفي طبعته الثانية التي اعتمدناها في هذا البحث عام 2013م. ثم أعيد طبعه عام 2015م.

غير أننا نرجح، أن يكون ما كتبه عن التفكيك كتبه قبل هذا التاريخ بكثير، وربما في حياة دريدا؛ أي قبل عام 2004م، ويرجح ذلك قوله: "ومعظم المقالات التي بدأ يكتبها دريدا، في الوقت الحالي، تبين أنه يعيش أزمة فكرية حادة"، ص 222

18- حميد لحمداني، الفكر النقدي المعاصر، ص 199

19- لمزيد من التفصيل حول إشكالية ترجمة مصطلحات التفكيكية، ينظر:
- علي صديقي، "إشكالية ترجمة مفاهيم (التفكيك Déconstruction) في النقد العربي المعاصر»، ص ص 82- 99

20- حميد لحمداني، الفكر النقدي، ص 204

دقيقة لمصطلح دريدا؛ لأن المقابل الفعلي للتقويض، هو (destruction)، وهناك اختلاف كبير في المعنى بين التقويض والتفكيك»[21].

غير أن ما يدعو إلى الدهشة، هو أن لحمداني، رغم اعتماده التفكيك مقابلًا لـ déconstruction، ورفضه مصطلح «التقويض»، إلا أنه يذهب، وفي الصفحة نفسها، إلى أن «المعنى العام للتفكيك هو التقويض!»، ورغم اعتباره الهدم ترجمة لمصطلح (destruction)[22]، إلا أنه عاد في آخر الكتاب ليترجم الـ (déconstruction) بالهدم![23].

يدل مصطلح التفكيك، حسب لحمداني، على: «نوع من القراءة، تشتغل من داخل النصوص الفلسفية أو الأدبية على خلخلة أبنيتها المعتمدة على الثنائيات الضدية، مثل؛ الصوت والصمت، الخير والشر، اللسان والكتابة، الدال والمدلول، المحسوس [و] المعقول، التعاقب [و] التزامن، السكون [و] الحركة ..إلخ، وبيان أن هذه الثنائيات ذات علاقة تجاذبية قائمة بين قطبيها، وهو ما يلغي مركزية أحدهما، وهامشية الآخر، ويضع القطبين، معًا، في وضعية حاجة أحدهما للآخر؛ أي في وضعية مغايرة لذاتهما؛ فالصوت في حاجة ضرورية للصمت والعكس صحيح، وكذلك الشأن بالنسبة لجميع الثنائيات الضدية الأخرى»[24].

أما التفكيكية deconstructivisme، فهي، تارة: «آلية، لتعرية المركزية الأوروبية، في صميم مبادئها؛ الميتافيزيقية، والعقلانية، والعرقية»[25]. وتارة أخرى: «آلية، لتفتيت النصوص، وإعادة بنائها بطريقة تسير عكس منطلقاتها. إنه [كذا] قراءة لتاريخ الفلسفة الميتافيزيقية، من خلال التركيز بشكل خاص على (فينومينولوجيا هوسرل)»[26].

وهنا، يتضح أن التفكيكية تطرح مشكلًا آخر، لا يتعلق هذه المرة بترجمتها، وإنما بتحديد طبيعتها؛ حيث لم يَسلم لحمداني من الاضطراب والسيولة المفرطة في استعمال الألفاظ الواصفة لها، والدالة على طبيعتها. ومن هذه الألفاظ: الآلية، والقراءة، والمنهجية، والاستراتيجية، والممارسة، والعملية، والاتجاه.

وقد يكون لحمداني معذورًا في هذه المسألة؛ فالاضطراب، والمراوغة، والسيولة، من أهم سمات التفكيكية، ثم إن، دريدا نفسه، ينفي أن يكون التفكيك «تحليلًا analyse، أو نقدًا critique». وفي الوقت

21- المرجع نفسه، ص 205، الهامش 37
22- نفسه، ص 204
23- نفسه، ص 238
24- نفسه، ص 204
25- نفسه، ص 193
26- نفسه، ص ص 193- 194

نفسه، يؤكد أنه ليس «منهجًا، ولا يمكن تحويله إلى منهج»، كما أنه «ليس فعلًا حتى، أو عملية». ليختم بالقول: «ما الذي لا يكون التفكيك؟ كل شيء! ما التفكيك؟ لا شيء!»[27]. ومثل هذا القول يوقع الباحثين في اللبس والحيرة.

1.2. «التشَتُّت dissémination»[28]:

يترجم حميد لحمداني المصطلح التفكيكي (dissémination): بـ «التشتُّت»، لكنه يستعمل، أحيانًا، «التشتيت» و«البعثرة»[29].

ويرى أن هذا المصطلح: «يعدّ أحد أهم المصطلحات المعتمدة من قبل دريدا في قراءته التفكيكية»[30]، وقد لاحظ لحمداني أن غموض هذا المصطلح، يرجع إلى أن دريدا يلجأ عند تحديده له، إلى استعمال «الاستعارة» و«الكلام العام»[31]، ثم يعلق على ما قدمه دريدا من تعريفات لهذا المصطلح، وتوضيحات حوله، بقوله: «ولا تزيد هذه «التوضيحات» المقدمة، كما نرى الأمر، إلا غموضًا؛ بسبب اللغة الاستعارية المستخدمة في موضوع نقدي، يتطلب عبارات محددة ودقيقة»[32]، غير أن ما غاب عن لحمداني؛ هو أن الغموض والسيولة من سمات التفكيكية، وأن التحديد والدقة: مقولتان ميتافيزيقيتان، لا تستقيمان مع التوجه التقويضي لدريدا؛ ولذلك ينفر منهما، ويسعى إلى تقويضهما.

إن التشتيت، عند دريدا، يشبه تمامًا مفهومَي، الاختلاف والأثر؛ فهو «لا يعني شيئًا»، ولا يمكن تعريفه بوضوح[33]، ووظيفة هذا المفهوم: هي تشتيت المعنى داخل النص، ومنع تحققه، وفتح النص أمام لانهائية الدلالة؛ أي إلغاء المعنى والمرجعية؛ لأن المعنى، كما يؤكد دريدا، لا يمكن أن نرصده، ولا أن نوقفه، فهو لا نهاية له، كما أن نظام العلامة ليس له أي خارج[34].

ويرى دريدا، أن الاهتمام المتزايد بالتعدد الدلالي، خطوة متقدمة باتجاه تجاوز خطية الكتابة، وواحدية المعنى، ولكنها في نظره، غير كافية؛ لأن «التعدد الدلالي» ينتظم ضمنيًا في أفق انبثاق وحيد للمعنى؛ بل

27- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ص ص 60-63. والشيء نفسه يكرره دريدا في موضع آخر؛ حيث يؤكد أن التفكيك ليس فلسفة، ولا مجموعة من الأطروحات، ولا سؤالَ وجود، ولا يمكن أن يكون نظامًا أو منهجًا، كما أنه ليس تقنية، ولا تطبيقًا للقواعد!. انظر:
- Jacques Derrid, Qu' est-ce que la Déconstruction, p p 2-3.

28- حميد لحمداني، الفكر النقدي، ص 206

29- المرجع نفسه، ص 206

30- نفسه، ص 206

31- نفسه، ص 206

32- نفسه، ص 206

33- جاك دريدا، مواقع، ص 45

34 -Jacques Derrida, De la grammatologie, p 332.

وفي جدلية غائية وذات منزع كلياني، تمكن في لحظة معينة، ولو بعيدة، من جمع كلية النص في حقيقة معناه لتحيله إلى تعبيرات وتصويرات، ولتعدم فيه التحرك المفتوح والمنتج للسلسلة النصية. أما التشتيت؛ فلكي ينتج عددًا غير منته من الآثار الدلالية، فإنه لا يترك نفسه ينقاد إلى حاضر بسيط الأصل، ولا إلى أي حضور أخروي»[35]؛ ولذلك، يؤكد أن التشتيت: «هو تعدد توليدي، وغير قابل للاختزال»، وأن من أهم وظائفه: «فصل رأس النص عن جسده»[36].

وقد أدرك لحمداني هذه الدلالات التي يعطيها دريدا للتشتيت، فرأى أن: «الهدف الأساسي دائمًا من هذه البعثرة، هو إظهار الطبيعة المتشتتة للنص، رغم مزاعم القصدية والانسجام في الخطاب، وقيامه على المعنى الواحد»[37].

1.3. «الاختلاف (différence différance)»[38]:

يبدو من خلال هذا العنوان الفرعي الموضوع من قبل مؤلف الكتاب، أن لحمداني يجعل اللفظ العربي «الاختلاف» مقابلًا للفظتَين الفرنسيتَين «différence» و«différance». وفي موضع آخر من الكتاب نفسه، يترجم اللفظة الفرنسية «différence» بالاختلاف، ثم يجعل اللفظة «différance» بين قوسين[39]، وكأن الثانية مجرد بديل عن الأولى، أو كأنها تفسير لها!. وفي المقابل، نجده، في موضع ثالث، يترجم الـ«différance» بـالمغايرة، ويجعل هذا المصطلح من المصطلحات الأخرى، التي تتلبس بمفهوم الاختلاف[40]، وكأن مفهوم الاختلاف مباين لمفهوم المغايرة، غير أن لحمداني يعود، في موضع رابع، ليترجم différance بالاختلاف[41].

والاختلاف، حسب لحمداني: مفهوم يشرحه دريدا «في إطار كلامه عن الصوت، والظاهرة في الفينومينولوجيا لدى هايدغر، اعتمادًا على الفارق الأساسي بين حالتين متعارضتين، لكنهما في نفس الوقت متكاملتين؛ حيث لا يمكن أن تستغني الواحدة عن الأخرى؛ فالصوت، باعتباره يمثل هوية الحضور الذاتي

35- جاك دريدا: مواقع. ص 46

36- المرجع نفسه، ص 46

37- حميد لحمداني: الفكر النقدي. ص 207

38- المرجع نفسه، ص207

39- نفسه، ص 199

40- يقول لحمداني في (ص 198): "نرى دريدا يصل جميع المعطيات البنائية والسيميائية، بأحد أهم مفاهيم التفكيكية وهو: مفهوم **الاختلاف**، وما يتلبس به من مفاهيم أخرى، مثل **المغايرة** différance».

41- يقول لحمداني في (ص 208): «هنا، يأتي مصطلح الاختلاف différance مجددًا؛ ليجسد مغايرة الأصل عن أصليته».

للمتكلم، هو في حاجة إلى الصمت؛ أي إلى نقيضه، وهذا في حد ذاته إشارة إلى ضرورة اللاذات؛ أي إلى ضرورة الغياب لتأكيد الحضور الذاتي»[42].

ويؤكد لحمداني أن هذا الصوت قد نظر إليه «في الميتافيزيقا، على أنه: تعبير خالص عن الحضور الكلي للذات من أجل ذاتها؛ بمعنى أن الصوت ليس في حاجة إلى الصمت لإثبات حضوره؛ ولهذا السبب، قيل إن الصوت: هو ذلك الدليل الأصلي الذي يتمتع بالشرف الفينومينولوجي، الدال على حضور الذات لذاتها، وهو يعبر عن بنية الدال الباطني المحض، وقد جاءت (التفكيكية) بمفهوم الاختلاف، كما رأينا، لتبيّن بطلان هذا الزعم الميتافيزيقي حسب تصورها الخاص»[43].

ونخلص من حديث لحمداني السابق عن مفهوم «الاختلاف»، إلى أن الباحث لا يميز بين «différence» (بحرف e)، و«différance» (بحرف a)، وأن دريدا «شرح» مفهوم الاختلاف في سياق حديثه عن «الصوت والظاهرة»، وأن نقيض الصوت، الذي يدل، في الميتافيزيقا الغربية على «الحضور الذاتي للمتكلم» هو الصمت؛ ولذلك صاغ دريدا مفهوم الاختلاف، لإعادة الاعتبار للصمت، الذي كان منحطًا في الميتافيزيقا الغربية، والذي يحيل إلى الغياب!. وهكذا يظهر أن لحمداني لم يدرك ما بين «الاختلافين» من فروق، مع أن الفرق بينهما شاسع جدًا.

إن الـdifférance لفظة اصطنعها دريدا، وهو يكتبها بحرف a عوض e؛ لأنه لاحظ أن الحرف a يكتب ويقرأ، ولكن لا يسمع ولا يمكن سماعه[44]، وإنما يبقى صامتًا وسريًا، وخارج نطاق الفهم[45]؛ مما يعني أن الفرق بين الحركتين a وe فرقًا كتابيًا فقط، وأن الكتابة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكننا من خلالها مقاربة هذه الكلمة؛ لأنه يتعذر على السمع إدراك الفرق بين الحرفين، وهدفه من القيام بهذا العمل واضح: وهو تقويض دعائم ميتافيزيقا الحضور، وأسسها القائمة على التمركز حول الصوت المنطوق، ومقولات وضوح الكلمة المنطوقة وحضورها، وخطر الكتابة على الصوت في نقل الحقيقة الحية وتداولها. وبالمقابل، يؤكد أهمية الكتابة ووضوحها، ويقوي من فعاليتها الدلالية والفلسفية.

إن دريدا، بهذا الإجراء، يقلب المعادلة التقليدية؛ حيث يصبح النطق: هو الثانوي قياسًا إلى الكتابة؛ لأنه كشف عن عجزه عن إظهار الصوت، وهو ما يجعله يشكل خطرًا على الكتابة، وكل هذا سيوجه اهتمامنا نحو كل ما هو مكتوب.

42- المرجع نفسه، ص 207

43- نفسه، ص 207

44- جاك دريدا، مواقع، ص 14. وانظر أيضًا:

- Jacques Derrida, Marges de la Philosophie, p 4.

45- ibid, p 4.

كما لاحظ أن كلمة الاختلاف بحرف e(différence) ذات معنى واحد؛ فهي تدل على الاختلاف؛ بمعنى التمايز وعدم التطابق، وتفتقر إلى معاني الإرجاء والتأجيل والإحالة، وهي ذات بعد مكاني فقط. في حين تدل كلمة différance على معنيين اثنين؛ فهي، أولًا: تدل على الاختلاف؛ بمعنى المغايرة وعدم المطابقة. وتدل، ثانيًا: على الإرجاء، والتأجيل، والتأخير.

للاختلاف différance، إذن، معنى مزدوج، فهو أوّلًا:

«1- فعل يراد به التأجيل إلى ما بعد، وأخذ الزمن والقوى بعين الاعتبار، في عملية تتضمن حسابًا اقتصاديًا، ودورة، ومهلة، وتأخيرًا، واحتياطًا، وكلها مفاهيم يمكن أن ألخصها في كلمة: التأجيل temporisation.

2- المعنى الآخر لـ différer (باين): هو الأكثر شيوعًا، والأكثر قبولًا للتحقق: ألا يكون مطابقًا، ألا يكون آخرًا، غيرية من التباين، أو من النفور، أو من السجال، من اللازم أن يحدث بين العناصر الأخرى، وبشكل صريح وديناميكي: فاصل، مسافة، فسحة Espacement»[46].

وهكذا، يكون لمفهوم الاختلاف بعدان متعارضان: مكاني؛ ترتبط به معاني المغايرة والتمايز. وزماني؛ ترتبط به معاني الإرجاء والتأجيل، وهي مفاهيم تتعارض، فيما بينها، تعارض الحاضر والمستقبل، والإيجاب والسلب، والذات والآخر؛ بل وتصل إلى حد التناقض الصريح، وهو ما يجعل الكلمة: «مسرحًا لحرب داخلية»[47].

ثم إن لحمداني، حين يذكر أن دريدا شرح مفهوم الاختلاف في سياق حديثه عن الصوت، والظاهرة في (الفينومينولوجيا) لدى هايدجر، ثم يحيل القارئ إلى الترجمة العربية لكتاب «الصوت والظاهرة»، التي أنجزها فتحي إنقزو، فهذا يؤكد؛ أولًا: أن لحمداني غاب عنه أن دريدا، وإن كان قد تحدث عن هذا المفهوم في مجموعة من المواضع من كتاباته، إلا أنه خصص له دراسة مطولة، أغفلها لحمداني إغفالًا تامًا، تحمل عنوان: «ladifférance»[48]. ويؤكد، ثانيًا: أنه لم يطلع مطلقًا على هذا الكتاب، لا في ترجمته العربية، ولا في أصله الفرنسي؛ ولذلك غاب عنه؛ أن الكتاب، سواء في أصله الفرنسي، أو في ترجمته العربية التي

46- روجي لابورت، وسارة كوفمان، مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، ص ص 37- 38. وانظر أيضًا:
- Jacques Derrida, Marges de la Philosophie, p 8.

47- روجي لابورت وسارة كوفمان، مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، ص 41

48- نشرت الدراسة في كتابه:
- Marges de la Philosophie, p p 1-29.
وهذه الدراسة، في الأصل؛ محاضرة ألقاها دريدا في الجمعية الفرنسية للفلسفة، سنة 1968م، وقد ترجمتها هدى شكري عياد من الإنجليزية إلى اللغة العربية، بعنوان: الاختلاف المرجأ، ونشرتها في مجلة فصول، مج 6، ع 3، 1986م، ص ص 52-67

يحيل إليها، لا يتضمن الدراسة التي تضمنها في ترجمته الإنجليزية، التي قام بها دافيد أليسون David B. Aliison عام 1973م.

وقد حاول دريدا في هذه الدراسة، بيان طبيعة هذا المفهوم؛ فأكّد أنه لا يشكل مفهومًا[49]، ولا كلمة[50]، وأنه ليس ثابتًا ولا متطورًا، ولا بنائيًا ولا تاريخيًا[51]. كما أنه «ليس كائنًا حاضرًا مهما حاولنا جاهدين جعله فريدًا ورئيسيًا أو متعاليًا؛ فهو لا يسيطر، ولا يتحكم في أي شيء، ولا يمارس أي سلطة في أي مكان، كما أنه لا يبدأ بحرف كبير. وليس الأمر فقط أن الاختلاف لا مملكة له؛ بل إن الاختلاف يسعى إلى تدمير كل مملكة، وهذا، بالتأكيد، ما يجعله مهدِّدًا ومثيرًا للخوف لدى كل من يرغب في مملكة في داخلنا، سواء أكانت حاضرة في الماضي أم في المستقبل»[52]، وهو، بعد كل ذلك، لا يمكن تصوره ولا إدراكه»[53]، إنه، ببساطة، لا شيء، رغم أنه «أساس» كل شيء!.

أضف إلى ذلك؛ أن نقيض الصوت الذي كان يعزى إليه الحضور الكامل في الميتافيزيقا الغربية، ليس هو الصمت، كما ذهب إلى ذلك لحمداني؛ وإنما هو الكتابة. فقد لاحظ دريدا: أن الميتافيزيقا الغربية، منذ أفلاطون إلى مارتن هايدجر، تعلي من شأن الكلمة المنطوقة، وتحط من قيمة الكتابة، وتبقي عليها في حدود وظيفة ثانوية وأدواتية: مجرد ترجمة الكلام وتمثيله. كما رأى أن نزعة التمركز حول الصوت المنطوق هذه، مرتبطة بميتافيزيقا الحضور؛ أي بتعيين كينونة ما هو كائن، بوصفه حضورًا؛ ذلك بأن الامتياز الممنوح للصوت، في التراث الفلسفي الغربي، لم يكن اختيارًا يمكن تفاديه؛ بل كان أمرًا ضروريًا؛ لأن هذا التصور مرتبط بتحديد نمط العلاقة بين الوجود والذات، وبما يسميه دريدا: (نظام سماع المرء، نفسه، يتكلم le système du s’entendre parler؛ أي إنصات الذات، واستماعها إلى نفسها أثناء حديثها)[54].

من هنا، سعى دريدا إلى إعادة الاعتبار للكتابة التي تحيل إلى الغياب، والتي ستكون هي الوسيلة التي سيتوسل بها لـتمزيق هذا الحضور.

49- انظر:
- جاك دريدا، مواقع، ص 40

- Jacques Derrida, Marges de la Philosophie, p p 7-11.

50- ibid, p 7.

51- ibid, p 13.

52- ibid, p 22.

53- ibid, p 20.

54- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ص 105. ويربط دريدا بين اعتبار الفلسفة الغربية الكلام حيًا، وبين الحضور للذات؛ لأن الكلام يفترض أن الذات المتكلمة تنصت لنفسها في الحاضر. انظر:
- جاك دريدا، الصوت والظاهرة، ص 128

وإذا كانت الميتافيزيقا الغربية، قد حافظت على هذا التراتب: كلام/كتابة، مع منح الامتياز للكلام؛ من أجل الإبقاء على إمكانية الحضور قائمة، فإن دريدا، يعلن موت هذا الكلام، الذي يعزى له الحضور الكامل. يقول: «رغم هذه المظاهر، فهذا الموت للكتاب لا يعلن، بدون شك (وعلى نحو ما دائمًا)، إلا عن موت الكلام (كلام، بحسب ما يقال، ممتلئ)، وعن تحول جديد في تاريخ الكتابة، وفي التاريخ بوصفه كتابة»[55].

وهذا الإعلان عن موت الكلام، سيفتح المجال أمام الكتابة لتشمل اللغة، ولتمتد إلى جميع المجالات والحقول الأخرى. فإذا كانت اللغة، يقول دريدا: «تطلق على كل من؛ الفعل، والحركة، والفكر، والتفكير، والوعي، واللاوعي، والتجربة، والعاطفة، ...إلخ»، فإننا «نواجه اليوم نزوعًا لإطلاق تسمية «كتابة» على هذه الأشياء جميعًا، وسواها؛ لا لتسمية الحركات الجسمانية التي تستدعيها الكتابة فحسب، وإنما، كذلك، على كل ما يجعلها ممكنة، ومن ثم، وفي ما وراء الجانب الدال، على الجانب المدلول عليه نفسه»، وهكذا سيمكننا الحديث عن كتابة رياضية، وكتابة سياسية، وكتابة عسكرية... إلخ[56].

وإذا كان روسو قد اعتبر الكتابة مجرد ملحق بالكلام، فإن دريدا يرينا فعالية هذا الملحق، الذي من شأنه أن يقلب نظام ما يضاف إليه، وأن يحل محله أحيانًا.

1.4. «الأثر trace»:

يعد مفهوم (الأثر): آخر المفاهيم التفكيكية التي توقف عندها لحمداني، وقد قدمه إلى القارئ العربي بقوله: «يرتبط مفهوم الأثر، الذي استعمله دريدا، في سياق شرح طبيعة الاختلاف أيضًا، بما يتركه كل طرف من تلك الثنائيات المذكورة سلفًا في الطرف المقابل له، من تغيير سالب ومانح في نفس الوقت. ويتحدث دريدا عن الأثر كما يلي: ((إن كل عنصر يتأسس، انطلاقًا من الأثر الذي تتركه فيه العناصر الأخرى في السلسلة أو النسق)). لكل هذا، يعتبر مفهوم الأثر، في الواقع، مكملًا لمفهوم الاختلاف، وشارحًا لمضامينه، على أنه يمكن ربط العلاقة بين مفهوم الأثر ومصطلح التناص، الذي لا شك أن دريدا كان يعتقد به دون أن يهتم باستعماله، مع أنه تحدث كثيرًا عن العلاقات النصية، وتشتت دلالات المفردات المستعملة في الكلام، وتأثير رصيدها الدلالي عبر التاريخ الذي يصعب إلغاء أثره في النصوص المكتوبة حديثًا»[57].

هذه هي الفقرة التي خصصها الناقد للتعريف بمفهوم الأثر، وقد تعمدنا إيرادها كاملة، حتى يدرك القارئ تواضعها، وتواضعُها هذا يزيد مفهوم الأثر غموضًا، ولقد حاول لحمداني تقديم تعريف للأثر، دون الرجوع

55- Jacques Derrida, De la grammatologie, p 18.

56- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ص 107

57- حميد لحمداني، الفكر النقدي، ص 209

إلى أي مصدر من مصادر التفكيكية، واكتفى بالعودة إلى «مقدمة كاظم جهاد» التي نقل منها مقولة دريدا الموضوعة بين أقواس في الفقرة.

ثم إنه أشار إلى وجود علاقة بين مفهوم الأثر ومفهومَي؛ الاختلاف والتناص، لكنه لم يبين طبيعة هذه العلاقة، ولم يشرح كيف يكون الأثر «مكملًا لمفهوم الاختلاف وشارحًا لمضامينه».

إن العلاقة بين الأثر والاختلاف، عند دريدا: هي علاقة جدلية؛ حيث إن مفهوم الأثر لا ينفصل عن الاختلاف، والاختلاف لا وجود له بدون أثر [58]، كما أنه لا يمكن التفكير في الاختلاف بدون الأثر[59]؛ لأن الأثر (الخالص pure)، هو الاختلاف الذي يتيح إمكانية الظهور والدلالة[60].

غير أن هذا المفهوم، لا يرتبط لدى دريدا بالاختلاف فحسب، وإنما بغيره من مفاهيم التفكيكية، كذلك، كالكتابة والحضور والأصل. فالكتابة، وإن لم تكن هي الأثر نفسه؛ فهي: «تمثل الأثر بصفة عامة»[61]، أما علاقة الأثر بالحضور، فهي علاقة تعارض؛ إذ إن وظيفة مفهوم الأثر هي محو الحضور. من هنا، يحدّد دريدا الأثر بأنه: كل ما لا يسمح لنا بتلخيصه في حدود الحضور وحده[62].

لكن، وبرغم هذا «التحديد»؛ فإن دريدا يؤكد أن الأثر، مثله مثل الاختلاف، «لا شيء»؛ لأنه، ببساطة، «ليس موجودًا»[63]، ولا يمكن أن يوجد؛ لأن الوجود يعني الحضور. يقول دريدا: «والأثر نفسه لا وجود له، (فأن توجد، يعني أن تكون؛ أي أن تكون موجودًا؛ أي موجودًا حاضرا)»[64].

وكما يعارض الأثر الحضور، فهو يعارض مفهوم الأصل؛ فالأثر، كما يؤكد دريدا: «متناقض ومرفوض في منطق الهوية، والأثر لا يعني اختفاء الأصل فحسب، إنه يعني، في الخطاب الذي نتبناه، والمسار الذي نتبعه: أن الأصل لم يختف، ولم يكن مؤسَّسًا أبدًا، إلا في مقابل اللا-أصل؛ أي الأثر، الذي يصبح كذلك أصل الأصل»[65].

58- Jacques Derrida, Marges de la Philosophie, p 19.
59- Jacques Derrida, De la grammatologie, p 83.
60- ibid, p p 92-95.
61- ibid, p 238.
62- ibid, p 97.
63- ibid, p 110.
64- ibid, p 238.
65- ibid, p 90.

2. في نقد التفكيكية:

وجه لحمداني نقدًا عنيفًا إلى التفكيكية؛ حيث وسم ما سماه «التصور التفكيكي» بـ«الغموض»، وهذا الغموض، في نظره، ليس ناتجًا عن عمق هذا التصور، ولا عن ذكاء صاحبه المفرط، والذي قد يفوق ذكاء المتلقين، والدليل على ذلك؛ هو هذا العدد الكبير من الباحثين والفلاسفة، الذين وصفوا ما كتبه دريدا بالغموض[66].

لكن ما سبب هذا الغموض؟ يجيب لحمداني عن هذا السؤال، بالقول: «ولعل الطابع الشعري لكتابته، يمثل أحد العوامل الأساسية لغموض أفكاره، وقد اعتبر دريدا اللغة الشعرية وسيلة أساسية لممارسة التفكيك والتعبير عن أفكاره؛ فالعملية التفكيكية لها بعد شعري، وهي، في نهاية المطاف: نوع من البويطيقا. حتى وإن كانت النصوص الخاضعة للتحليل ذات طابع فلسفي، والاتجاه التفكيكي يزاوج، بهذا الشكل، بين النقد الأدبي والتحليل الفلسفي؛ لأنه يبحث دائمًا عن تلك النصوص الأدبية، التي تحتوي مضامين فلسفية»[67].

ولا يكتفي لحمداني باتهام التفكيكية بالغموض، وإنما يرميها، كذلك، بـ«العدمية» و«السفسطة»[68]؛ حيث يؤكد، في سياق مقارنته بين «النقد التفكيكي»، و«النقد التأويلي»، «أن أهم علامة فارقة بينهما، هي: أن التفكيك يريد إبقاء نتائج قراءة النصوص في العتمة الدائمة للتشتت والتعارض والإرجاء، وهو ما يسير بقراءة الأدب إلى موقف عدمي شديد الضرر بالمعرفة، وباعث على الضياع والتيه. أما التأويل لدى معظم منظريه: فهو مدرك لحدود المدلولات المستخلصة من الأعمال الأدبية، ولطابعها النسبي، ولكنه، مع ذلك، لا يلقي بها في عتمة العدمية؛ بل يعتبرها في المرحلة الآنية صالحة للتداول والتوظيف الاجتماعي»[69].

ومما يؤكد عدمية التفكيكية وخطورتها؛ غياب أي أهداف إنسانية لدى دريدا، وتشكيكه الدائم في جميع المطلقات الفكرية، سواء كانت ميتافيزيقية أو وضعية، وفي جميع القيم الإنسانية التي يسعى إلى هدمها ونفيها[70].

كما يرى لحمدان، أن التفكيك غالبًا ما يلجأ إلى استخدام ما سماه «أسلوب التلخيص الشارح»، وهذا ما يجعله يشبه «النقد الكسول: الذي يعتمد بشكل «طفيلي» على مضامين النصوص الأخرى، من أجل بناء

66- حميد لحمداني، الفكر النقدي، ص 198

67- حميد لحمداني، الفكر النقدي، ص 199

68- المرجع نفسه، ص 201

69- نفسه، ص 213. ويقول أيضًا: (ص ص 224- 225). «ونظن بعد الاطلاع على فكر (دريدا)، وممارساته التفكيكية، أنه يمثل أحسن تمثيل «فلسفة» العجز والعدمية، التي كان يشعر بهما أحيانًا سلفه نتشه».

70- يقول لحمداني، (ص221): «إن ما تعلن عنه كتاباته، يجعله منظرًا صامتًا للهدم وموت القيم»، ويؤكد، في موضع آخر (ص 225): أن التفكيكية «تنهي المناهج الفلسفية والأدبية وتنهي العقل والقيم».

خطابه الخاص»[71]. واستدل لحمداني على ذلك بطريقة قراءة دريدا نصوص جان جاك روسو؛ حيث يكتفي بعرض أفكار روسو باستعمال خطاب ناثر أو شارح، وبالإكثار من إيراد أقواله، وهذا الأمر لا يفيد سوى في جعل نص دريدا أكبر حجمًا[72].

أضف إلى هذا، وقوع التفكيك في التناقض، وفساد نقض التفكيكية للميتافيزيقا الغربية؛ لأن التفكيكية تنقض نفسها بنفسها، حين تؤكد أنه لا يمكن تفكيك الميتافيزيقا الغربية إلا باستخدام لغتها ومفاهيمها[73].

هذه هي أهم الانتقادات التي وجهها لحمداني إلى التفكيكية، وهي انتقادات لا يردها إلا مكابر أو معاند، غير أننا نعقب عليها ببعض الملاحظات التي عنّت لنا ونحن نستعرضها، وفي مقدمة هذه الملاحظات: أن الباحث رغم أنه يعيب على دريدا الطابع الشعري لكتاباته، بدعوى أن مجال النقد مجال «يتطلب عبارات محددة ودقيقة»[74]، كما «يتطلب الحجاج والتحليل النصي المنطقي»[75]؛ فإنه يوظف اللغة الشعرية في عدد من المواضع، منها قوله: «ومع ذلك كله، فإن الخطاب النقدي التفكيكي الذي أقامه دريدا حول رسالة روسو في أصل اللغات وغيرها من النصوص، يبدو غارقًا في نصه؛ أي غارقًا في موضوعه، ومن شدة اختناقه في عوالم النصوص، نراه يصعد بين الحين والآخر إلى الأعلى ليلتقط أنفاسه، ويلوّح لنا بيديه، علامة على أنه لا يزال يقاوم فيها غرقه المحتوم»[76].

كما أن لحمداني استهل حديثه عن التفكيكية بنقدها، وختمه بنقدها، وهذا يتنافى مع المبدأ الذي ألزم به نفسه في مقدمة الكتاب، وهو مبدأ «الحياد الوصفي»[77]، الذي يقضي بعدم تحيز الباحث إلى أي منهج أو ضده. وإذا كان هذا المبدأ لا يمنع من انتقاد المنهج انتقادًا «معرفيًا مبررًا» ومؤسسًا على تحليل عميق للمنهج، ومساءلة كافية لمدى فعاليته، واختبار لكفاءته الإجرائية في قراءة النصوص؛ فإن ما يلاحظ: هو أن لحمداني كان متحيزًا تحيزًا واضحًا ضد التفكيكية؛ حيث خصص عدة فقرات لنقدها، حتى إنه قدم نقدها وحديثه عن غموضها على بيان خصائصها، والتعريف بمصطلحاتها، وتوضيح استراتيجيتها. وحتى حين تحدث عن خصائصها، مزج حديثه عن هذه الخصائص بنقدها، وهذا الأمر لم يقم به حين تعرض لباقي المناهج النقدية الغربية؛ حيث نلاحظ أنه اكتفى، في أغلب الحالات، بالعرض دون النقد؛ بل إن هذا النقد

71- نفسه، ص 202

72- نفسه، ص 202. وقد وصف في موضع آخر (ص 209) هذه الاستراتيجية في قراءة نص روسو بـ«المغرضة».

73- نفسه، ص ص 223-224

74- نفسه، ص 206

75- نفسه، ص 216. وهذا الرأي غير دقيق؛ فقد صار الحديث عن التمثيل والاستعارة في الخطاب الفلسفي والعلمي، أمرًا ذائعًا في أوساط الباحثين المعاصرين. انظر على سبيل المثال: جورج لايكوف، ومارك جونسن «الاستعارات التي نحيا بها»، فؤاد بن أحمد «تمثيلات واستعارات ابن رشد، ومنزلة التمثيل في فلسفة ابن رشد».

76- حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، ص 202. وانظر أيضًا: ص 204

77- المرجع نفسه، ص 7

يوحي به العنوان الذي وضعه للفصل الذي خصصه للحديث عنها؛ حيث يلاحظ أن عنوان الفصل يتضمن نقدًا لها، ولو من طرف خفي. وذلك بخلاف عناوين الفصول الأخرى التي جاءت «محايدة»[78].

ونشير، أخيرًا، إلى أنه رغم وجاهة الانتقادات التي وجهها لحمداني إلى التفكيكية؛ فإنه لم يعتمد في نقدها على ما توصل إليه من نتائج، قاده إليها تحليل التفكيكية في مصادرها ومساءلتها في أصولها، وإنما هي انتقادات ينقلها عن غيره من النقاد، ويكتفي بتلخيص آرائهم[79]، وهذا ما يجعل نقده للتفكيكية، يندرج ضمن ما سماه لحمداني «النقد الكسول».

3. في أسباب انتشار التفكيكية في أمريكا:

تساءل لحمداني عن سر انتشار التفكيكية ورواجها في مجال النقد الأدبي، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك رغم ما تتسم به من «تعقيد فلسفي»، فأجاب بقوله: «إن التفكيك يحتوي على مصطلحات كثيرة ذات قدرة فائقة على الحركة والتناور، مثل: الإرجاء remisage، والتكرار itération، والاختلاف différence (différance)، والتشتت dissémination. وهي مصطلحات مرنة وقابلة للانفراط والتطوير. كما يعزى الترحيب بالتفكيكية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن هدفها الأساسي؛ هو تقويض النزعة المركزية الأوروبية، التي تجلت في مبادئ العقل والقيم المثالية ذات الأساس الميتافيزيقي، بغض النظر عن تعقيدها أو بساطتها، هذا فضلًا عن أن التفكيك يحمل خلفيات فكرية تتلاءم مع إرادة القوة والهيمنة»[80].

غير أن السؤال الذي نطرحه، هنا، هو: هل تكفي هذه الأسباب التي ذكرها لحمداني لتفسير انتشار التفكيكية بين نقاد الولايات المتحدة الأمريكية؟

للإجابة عن هذا السؤال، نعتقد أنه لابد من استحضار ذلك التباين الذي نجده بين فرنسا وأمريكا، ليس في استقبال التفكيكية فحسب؛ وإنما في استقبال البنيوية كذلك. لقد استقبل النقاد الأمريكيون البنيوية بفتور ظاهر، ولم تنتشر في أمريكا انتشارها في فرنسا، وتفسر إديث كيرزويل ذلك بما نجده بين المزاجَين الثقافيين، الفرنسي والأمريكي، من اختلاف جوهري، يتمثل في اختلاف التقاليد التي ينطلقان منها، وتباين الأهداف التي يسعيان إلى تحقيقها؛ ولذلك، فهي ترى أنه لا يمكن للبنيوية أن تحظى بنفس الاستقبال الذي حظيت به في موطنها الأصلي: فرنسا، وذلك رغم اعترافها بأنها صارت من قبيل (الموضة) التي أصبح يتزايد انتشارها

78- هذه العناوين هي: «الأدب من وجهة النظر التاريخية»، و«الأدب من المنظور السوسيولوجي»، و«الأدب من منظور التحليل النفسي»، و«الأدب والالتزام (جان بول سارتر)»، و«الأدب من منظور الشكلانية والبنيوية»، و«الأدب من وجهة نظرية جمالية التلقي».

79- انظر: ص 198 وما بعدها.

80- نفسه، ص ص 199- 200

بين صفوة كثير من الدوائر الأكاديمية؛ والسبب، حسب قولها، هو: أن الأمريكيين «أقرب إلى التجريبية، أما الفرنسيون فأقرب إلى التفلسف، ونحن نشيد أنساقًا نظرية للتجريب، وهم يبنون أنساقًا للفكر الخالص»[81].

ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أن الأمريكي الذي تشكل (الذات والحرية الفردية) منطلق الإبداع لديه، قد رأى أن جبرية البنيوية وشموليتها تماثل جبرية الماركسية. يقول عبد العزيز حمودة: «لقد كانت تلك التركيبة الثقافية للعقل الأمريكي، وراء ذلك الاستقبال الفاتر للبنيوية في الولايات المتحدة؛ إذ إنهم يعتبرون أن آراء البنيويين حول اللغة، على وجه التحديد؛ هي جبرية، تماثل جبرية الماركسية التي يرفضها العقل الأمريكي»[82].

لكن، ومقابل هذا الفتور الذي قوبلت به البنيوية في الولايات المتحدة، هناك ترحيب بالتفكيكية، ويمكن تفسير هذا الترحيب؛ بكون التفكيكية التي قامت بوصفها رد فعل على البنيوية، وجعلت من الشك في فاعلية النموذج البنيوي نقطة انطلاقها، وقد اتخذت من تقويض؛ «الشمولية»، و«الكلية»، و«الجبرية»، ورفض الواحدية، أولى أهدافها. وبالمقابل، ارتكزت على الاختلاف والتنوع، والتعددية المفرطة، وجعلتها أساس الوجود، وهذا بالذات ما جعل الأمريكي يقبل على التفكيك، وعلى فلسفة جاك دريدا؛ إذ إن التعددية التي تمسك بها الأمريكيون في هذه الفترة لمواجهة «الشمولية» في الاتحاد السوفياتي، قد أصبحت، في أمريكا، «أفيون المثقفين الواهمين»، و«إيديولوجية عصر بلا إيديولوجية»[83].

ويؤكد راسل جاكوبي، أن أفكار التعددية الثقافية والتنوع، قد أصبحت في الولايات المتحدة، خلال هذه الفترة (أفكارًا مقدسة)، لقد أصبحت (شيكات على بياض) قابلة للدفع لأي شخص وبأي مبلغ، دون معنى أو مضمون»[84].

أما سعد البازعي، فيرى أن سر اهتمام الأمريكيين بالتفكيكية أكثر من غيرهم، وانتشارها بينهم، يعود إلى عاملين اثنين؛ «العامل الأول: هو التركيبة أو البنية الثقافية الأمريكية، وهي تركيبة أو بنية يشترك في صنعها المذهب البروتستانتي من المسيحية، من ناحية، والاقتصاد الرأسمالي، من ناحية أخرى. أما العامل الثاني: فهو كثافة التجمع اليهودي السكاني في الولايات المتحدة منذ أمد طويل، ولكن بشكل خاص منذ العقود الأولى من القرن العشرين، وعلى نحو أكثر تزايدًا بعد الحرب العالمية الثانية. وكان لهذين العاملين مجتمعين

81- إديث كيرزويل، عصر البنيوية، ص ص 259- 260

82- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص77. ويقول أيضًا في الصفحة نفسها: "ويرفض الأمريكيون... تحكم القوى الاقتصادية في حركة التاريخ؛ ولهذا اتسم استقبالهم للبنيوية بفتور واضح، لاعتقادهم بأن جبرية القوى الاقتصادية استبدلت بها، في المشروع البنيوي، أنساق اللغة المستقلة عن الذات، وأن اللغة، على هذا الأساس، هي الجبرية الجديدة المقابلة لجبرية القوى الاقتصادية، التي تحدد مصير الإنسان، وتصنع تاريخه في الفكر الماركسي".

83- راسل جاكوبي، نهاية اليوتوبيا، ص 47

84- المرجع نفسه، ص 48

دور، على ما يبدو، في توسيع وتعميق التلقي الأمريكي، ليس لدريدا وحده فحسب، وإنما لآخرين كثر، منهم فرويد، وهذان العاملان يتصلان ببعضهما البعض نتيجة للتقارب الشديد بين البروتستانتية واليهودية»[85].

4. في رصد واقع التفكيكية في العالم العربي:

ختم لحمداني دراسته عن التفكيكية برصد واقعها في العالم العربي؛ حيث أشار إلى ما لقيته من اهتمام واسع من قبل الباحثين والدارسين العرب، كما أشار إلى تباين مواقف هؤلاء تجاهها، وإلى ضعف تأثيرها «الفعلي في الرؤية الفكرية العربية والنقد الأدبي تنظيرًا وممارسة»، وذلك رغم وجود من يدافع عنها وينبهر بها[86]. وذكر الباحث مجموعة من النقاد والباحثين العرب المعاصرين الذين تأثروا بالتفكيكية، وحاولوا التنظير لها، والتعريف بها، والاستفادة منها في أبحاثهم، أمثال: عبد الكبير الخطيبي، ومحمد أركون، ومطاع صفدي، وعبد الله الغذامي، وعبد السلام بنعبد العالي، وبختي بن عودة، وعلي حرب، وغيرهم.

وقد اعتمد الناقد في رصده واقع التفكيكية في العالم العربي، وفي إصدار أحكامه على طبيعة حضور التفكيكية في الحقل الثقافي العربي، على دراسة محمد أحمد البنكي الموسومة بـــ «**دريدا عربيًا قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي**»[87]؛ حيث أشاد بقيمتها العلمية، واكتفى بتلخيصها وباستثمار نتائجها[88]، مع أن هذه الدراسة مسبوقة بدراسة أخرى لا تقل عنها أهمية، قام بها أحمد عبد الحليم عطية بعنوان: «**التفكيك والاختلاف: جاك دريدا والفكر العربي المعاصر**»[89]، استعرض فيها أثر التفكيكية في الفكر والنقد العربيين. غير أن لحمداني أغفل دراسة عطية، واقتصر على دراسة البنكي، كما أنه لم يكلف نفسه عناء العودة إلى ما كتبه الباحثون العرب أنفسهم عن التفكيكية، مع أن أصول البحث العلمي تقتضي القيام بذلك، قبل إصدار أي أحكام على مواقفهم تجاه التفكيكية، وهذا ما جعله يغفل عددًا من النقاد والباحثين العرب الذين تأثروا بالتفكيكية وأفادوا منها في كتاباتهم، أو انتقدوها وكشفوا عن تحيزاتها وخلفياتها، أمثال: عبد الملك مرتاض، وسعد البازعي، وميجان الرويلي، وعبد العزيز بن عرفة، ومحمد علي الكردي، وأسامة خليل، وعبد الله إبراهيم، وغيرهم. ودفعه إلى إصدار الكثير من الأحكام غير الدقيقة، كتلك التي أصدرها في حق عبد العزيز حمودة[90].

85- سعد البازعي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، ص 354

86- ص 225

87- صدرت الدراسة عام 2005م.

88- يقول لحمداني في (ص227): «وتجدر الإشارة إلى الدراسة التي نشرها الباحث محمد أحمد البنكي عن موضوع طبيعة حضور التفكيكية في الحقل الثقافي العربي، وذلك في كتابه: دريدا عربيًا...، وهي في الواقع أهم قراءة تقويمية كتبت عن التفكيكية في العالم العربي حتى الآن؛ ولذا سنحاول تقديم تلخيص مركز لبعض نتائج بحثه المركزية».

89- تتألف هذه الدراسة من قسمين؛ نشر أولهما في: مجلة دراسات عربية، ع2/1، س34، 1997م، ص ص 53-87. ونشر ثانيهما في المجلة نفسها، ع4/3، س34، 1998م، ص ص 104-117. ثم أعيد نشرها في: جاك دريدا والتفكيك، ص ص 25- 136

90- حميد لحمداني، الفكر النقدي، ص ص 228- 229

كما غاب عنه أن ما سماه «مشروع عبد الوهاب المسيري الأكثر طموحًا»[91]، يقوم أساسًا على فضح التفكيكية، وبيان تحيزاتها اللاهوتية، وخلفياتها القبالية اليهودية، غير أن الباحث لم يشر إلى هذه المسألة، مع أن ذلك هو، بالذات، ما يجعل هذا المشروع «أكثر طموحًا»!.

الخاتمة:

يبدو، مما سبق، أننا أمام موقفَين متباينَين إزاء المناهج النقدية الغربية عامة، وإزاء التفكيكية خاصة؛ الأول: يقول بتحيّز هذه المناهج، وبارتباطها بخلفياتها الفلسفية واللاهوتية، ويمثله (محمد مفتاح). والثاني: ينكر ذلك، ويعتبر القول بالخصوصية الثقافية والحضارية قولًا «مسكوكا»[92]، ويمثله (حميد لحمداني). غير أن هذا التباين الظاهري، لا يحول دون التقاء هذين الموقفين؛ وذلك لإيمانهما بـ«كونية» هذه المناهج، وبإمكانية تحييدها، وفصلها عن أطرها الفلسفية وخلفياتها اللاهوتية، وهذا ما يتضح من خلال تأكيد مفتاح توظيفه ما سماه «بعض أطروحات التفكيكية الإيجابية» في بعض أعماله.

91- المرجع نفسه، ص229

92- نفسه، ص ص 5- 228

المصادر والمراجع

أولًا: العربية والمترجمة:

- أحمد عبد الحليم عطية (مؤلف ومحرر)، **جاك دريدا والتفكيك**، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2010م.
- أحمد عبد الحليم عطية، «التفكيك والاختلاف: جاك دريدا والفكر العربي المعاصر»، **دراسات عربية**، مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية، العددان 2/1، و4/3، س 34، 1997م- 1998م.
- إديث كيرزويل، **عصر البنيوية، من ليفي شتراوس إلى فوكو**، ترجمة: جابر عصفور، عيون، الدار البيضاء، ط2، 1986م.
- جاك دريدا، «الاختلاف المرجأ»، ترجمة: هدى شكري عياد، **فصول**، مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج 6، ع 3، 1986م.
- جاك دريدا، **الصوت والظاهرة، مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل**، ترجمة: فتحي إنقزو، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 2005م.
- جاك دريدا، **الكتابة والاختلاف**، ترجمة: كاظم جهاد، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 1، 1988م.
- جاك دريدا، **مواقع (حوارات)**، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 1، 1992م.
- جماعة من الباحثين، **مشروع محمد مفتاح، دراسات في المنهج والمصطلح والمرجع**، تنسيق: سعيد عبيد، تقديم: مصطفى اليعقوبي، مطبعة آنفو –برانت، فاس/المغرب، ط1، 2011م.
- جورج لايكوف ومارك جونسن، **الاستعارات التي نحيا بها**، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1996م.
- حميد لحمداني، **الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف**، مطبعة أنفو– برانت، فاس، ط2، 2012م.
- راسل جاكوبي، **نهاية اليوتوبيا، السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة**، ترجمة: فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، الكويت، ع 269، 2001م.
- روجي لابورت وسارة كوفمان، **مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر**، ترجمة: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط 1، 1991م.
- سعد البازعي، **المكون اليهودي في الحضارة الغربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 2007م.
- عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 232، 1998م.
- عبد المنعم الحفني، **موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت).
- عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، دار الشروق، بيروت، ط1، 1999م.
- علي صديقي، «إشكالية ترجمة مفاهيم (التفكيك Déconstruction) في النقد العربي المعاصر»، **العربية والترجمة**، مجلة علمية فصلية محكّمة، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، ع 1، ربيع 2009م.
- علي صديقي، «مدخل لدراسة التفكيك عند جاك دريدا»، **ضفاف**، مجلة إبداعية ثقافية، وجدة، المغرب، ع6، 2004م.
- علي صديقي، **التحيز إلى النقد الغربي في النقد العربي الحديث**، المنشور بعنوان: **التحيز العربي للنقد الغربي**، كتاب المجلة العربية، مجلة الثقافة العربية، المملكة العربية السعودية، ع 171، 2011م.
- فؤاد بن أحمد، **تمثيلات واستعارات ابن رشد، من منطق البرهان إلى منطق الخطابة**، منشورات ضفاف، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 1433هـ/2012م.

• فؤاد بن أحمد، **منزلة التمثيل في فلسفة ابن رشد**، منشورات ضفاف، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 1435هـ/ 2014م.
• محمد أحمد البنكي، **دريدا عربيًا: قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2005م.
• محمد مفتاح، «في سبيل فهم جديد للنقد»، (حوار)، **مجلة آفاق**، اتحاد كتاب المغرب، ع 1، 1990م.
• محمد مفتاح، **النص: من القراءة إلى التنظير**، منشورات المدارس، الدار البيضاء، ط 1، 2000م.
• محمد مفتاح، **مجهول البيان**، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 1، 1990م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية:

• Jacques Derrida, De la grammatologie, Les Editions de Minuit, Paris, 1967.
• Jacques Derrida, Marges de la Philosophie, Editions de Minuit, Paris, 1972.
• Jacques Derrida, Qu’ est-ce que la Déconstruction? Le Monde, Mardi 12 Octobre 2004.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017